مفهوم الأسلوبية وصلتها بعلم البلاغة 1

1- مفهوم الأسلوبية ونشأتها :

تفتح الأسلوبيــة للدارس مجالات واسعــة في التعامل مع النص الأدبي وفهمه واكتشاف ما فيه من إبداع وتميز، ذلك أنها علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الأدبي خصائص الشعرية ، فتميزه عن غيره، وتتعدى مهمة تحديد الظاهرة إلى دراستها دراسة منهجية ، ويعد الأسلوب ظاهرة لغوية ضمن النص الأدبي.

« ومن ثم فإن مصطلح الأسلوبية يتجاوز مصطلح الأسلوب ، وإن كان مجالها يظل في دائرته ، وهي في الوقت ذاته تفتح لها مجالات أرحب وأفسح ، فمنها دراسة الإمكانات اللغوية التي تولد تأثيرات جمالية، ودراسة الركائز التي يعتمد عليها هذا التأثير الجمالي».

وتأخذ الأسلوبية مفهوم « البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب» ، أي دراسة الأسلوب – وهو جانب إنساني ذاتي – دراســة علمية موضوعــية ، وهي أيضا « دراسة الأسلوب عبر الانزياحات اللغوية والبلاغيــة في الكتابة الأدبية »، فهي إذن تعنى بالجانب الفني والجمالي في النصوص الأدبية ، ما جعل رومان جاكبسون Roman Jackobson يعرفها بأنها بحث عما يتميــز به الكلام الفني عن بقيــة مستويات الخطاب أولا ، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا .

أطلــق الباحث فون درجابلنتس Von der Gabelents مصطلح الأسلوبيــة سنــة 1875 ، غير أن الذي أصل لهذا العلم وأرسى قواعده هو شارل بالي Charles Bally سنة 1902 مثلما أرسى أستاذه فرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure أصول علم اللغة " اللسانيات " ، غير أن آراء بالي أتت عليها أطوار من النقد والشك ونبذ الجانب

العقلاني فيها ومن أبرز هؤلاء المشككين : ماروزو Jules Marouzeau وكراسو Crasseux وسبيتزر Leo Spitzer الذي أغرقت أسلوبيته في الذاتية وكفرت علمية البحث الأسلوبي.

ثم توالت الدراسات بعد ذلك سعيا لإثبات شرعية الأسلوبية وعدّها علما له موضوعه ومقوماته وأدواته الإجرائية ، وكان ذلك مع رومان جاكبسون Roman Jackobson وميشال ريفاتير Michael Privateer وستيفن أولمان Stephen Ullmann و باختين Mikhail Bakhtin ... وغيرهم من الباحثين.

إن أسلوبية شارل بالي مطلقة الوجود فهي تبحث في الخطاب الألسني أينما كان ، ولا تختص بالحدث الأدبي وحده ، فهو لم يعمد إلى تقسيم اللغة إلى لغة الخطاب النفعي ولغة الخطاب الأدبي ، إنما رغب عن هذا التصنيف وذهب إلى تصنيف الخطاب إلى نوعين : ما هو حامل لذاته وما هو حامل للعواطف والخلجات والانفعالات ، فاللغة تكشف عن وجهين وجه فكري ووجه عاطفي ، ومعدن الأسلوبية – حسب بالي – هو « ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تُبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية ، بل حتى الاجتماعية والنفسية ، فهي إذن تتكشف أولا وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني ».

غير أن جلّ رواد الأسلوبية قصروها على الخطاب الفني ، فجاكبسون خصها بأنها « بحث فيما يتميّز به الكلام الفني» ، أي دراسة الخصائص اللغوية التي تميز الكلام الأدبي عن غيره من الكلام ، أو الخصائص التي تجعل الكلام ذا أثر فني ، وميشال ريفاتير حدد مفهومها بأنها « علم يعنى بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية ، وهي تعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء علم الأسلوب ، وهي تنطلق من اعتبار الأثر الأدبي بنية ألسنيّة

تتحاور مع السياق المضموني تحاورا خاصا » ، بمعنى أنها دراسة لغوية تعنى بالبحث عن الأثر الفني في النصوص الأدبية .

وهو ما ذهب إليه بيار جيرو Pierre Giraud الذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته الإبلاغية ، فالأسلوبية تسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية .

تعد الأسلوبية منهجا نقديا يمكن القارئ من إدارك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نافذا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظيفية ، فهي وسيلة لدراسة الأدب في النقد الحديث ، لكنها لم تكن مقتصرة على دراسة الأدب إنما تدخل في مجال الدرس اللساني عامة ، فقد تقاطعت مع لسانيات دو سوسير ، وطور معالمها تلميذه شارل بالي في كتابه مصنف الأسلوبية الفرنسية Traité de stylistique Française مركزا على الأسلوبية النفسية والوجدانية والتعبيرية اللغوية ، ثم جاء مارسال كروسو ليحول الجانب الوجداني للغة إلى مفهوم جمالي ، ولحقه في ذلك بيار جيرو .

وهكذا يمكن إجمال القول في تعريف الأسلوبيــة بأنها : « الأسلوبية أو علم الأسلوب علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغويــة التي تكسب الخطاب الاعتيـادي أو الأدبي خصائصــه التعبيريــة والشعريــة فتميـزه عن غـيره ، وتتعدى مهمــة تحديـد الظاهـرة إلى دراستها بمنهجيــة علميــة لغويــة ، وتعد الأسلوب ظاهرة لغوية في الأساس، تدرسها ضمن نصوصها ».

فالأسلوبية منهج يعتمد اللغـة باعتبارها وسيلــة للكشف عن الخصائص التعبيريـة والشعريــة التي تميز الخطاب ، ويعد الأسلوب ظاهرة بارزة في الدراسات الأسلوبيـة ، بل إنه هو موضوع الأسلوبــية.